فِلولوجيا المُسْتَقْبَل Future Philology - دَعْوَة إلى تَقْوِيْم النَّظَر في المُمَارَسَة النَّصِّية

يطمح هذا المشروع إلى إعادة النظر في علم الفلولوجيا والأصول الثقافية العالَمية من خلال المساهمة في نقد الخطابات الثقافية الإقصائية وتشجيع البحث الفلولوجي الإنساني المقارن.1 وفي عصر لا سابق له في انتقال المعارف والخبرات، وهجرة البشر والعقول، وتَعَقُّد أشكال الاتصال الإنساني والاختصاص العلمي، أصبح البحث في التراث الإنساني العالمي المتمثل في نصوص الآداب القديمة، جمعا وتوثيقا، تحقيقا ودراسة، حاجة ماسّة . هذا ويأتي مشروع فِلولوجيا المُسْتَقْبَل، الذي يشرف عليه مجموعة من الباحثين من جامعة برلين الحرة بألمانيا، داعما ومنشطا للبحث العلمي في التقاليد والممارسات النصية المهمشة، حديثها وقديمها، من آسيا وإفريقيا والعالم العربي وأوروبا، ويسعى المشروع أساسا إلى التعرف على تلك الممارسات النصية التي تعود إلى عهد ما قبل الاستعمار، والتي آلَتْ إلى التهميش أو الاقصاء أو النسيان، وإدراجها في ثقافة إنسانية عالمية تُثَمِّن التنوع الثقافي والاختلاف الفكري.

يستلهم المشروع روحه من مفكرين وباحثين مرموقين، تجمعهم رغبة في الخروج عن الأنساق الثقافية الضّيِّقة في الدراسات الإنسانية والانخراط في مقاربات للقراءة والبحث أكثر رحابة وانفتاحا على التراث الثقافي العالَمي. على رأسهم المفكر الراحل أدوراد سعيد، لا سيما في مقاله الموسوم العودة إلى الفلولوجيا The Return to Philology الذي دعا فيه إلى إعادة الاعتبار للتراث الأدبي العالَمي وفتح آفاق جديدة للقراءة تتسم بنزاهة إنسانية أرقى وانفتاح أصدق للذات على الآخر.2 وينطلق المشروع أيضا من واقع الدراسات الإنسانية في الجامعات الغربية والتي تقتطف اليوم ثمار العولمة المتمثلة في سهولة التبادل المعرفي انفتاحا على التراث الثقافي العالمي ورفع الستار عن نتاج نصي قد هُمِّش بفعل هيمنة ثقافة المستَعْمِر.3 وقد عبَّر عن هذا الواقع بنحو من التفصيل أستاذ الدراسات الهندية في جامعة كولومبيا شلدون بولك

1

الفيلولوجيا: كلمة باعتبارها مركب إضافي من لفظتين يونانيتي الأصل، هما فيلو وتعني: الحب، ولوجيا وتعني الكلمة، يكون المعنى: حب الكلمة. وباعتبار الكلمة اسم عَلَم على فنٍّ من الفنون فتعني: علم اللغة التاريخي والمقارن، وموضوعها تحقيق النصوص القديمة ودراستها حسب سياقيها التاريخي الثقافي. ويسمى هذا العلم أيضا بـ علم الآداب القديمة وعلم تحقيق النصوص. انظر مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين، رمضان عبد التواب، القاهرة 1986؛ وانظر أيضا بول ماس، نقد النص، ترجمه عن الألمانية ونشره ضمن كتابه النقد التاريخيعبد الرحمن بدوي، الطبعة الرابعة، 1984

2

تُرجِم المقال إلى العربية بعنوان العودة إلى الفلولوجيافي كتاب الأنسنية والنقدية الديموقراطية، ترجمة فوّاز طرابلسي، دار الآداب 2005، 79-107

3 E.g. Said, Orientalism, 1979, "The Return to Philology" in Humanism and Democratic Criticism, 2003; Rodinson, Europe and the mystique of Islam, 1987; Al-Azmeh, Times of History: Universal Topics in

Sheldon Pollock في مقاله المسمى فِلولوجيا المُسْتَقْبَل: مَصِير عِلْم لَيِّن في عالَم صعب Future Philology: The Fate of a Soft Science in a Hard World.

عنوان المشروع مقتبس من رسالة سِجَاليّة كتبها أحد أعمدة فقه الأدب اليوناني واللاتيني الألمان من القرن التاسع عشر، هو أُلْريش فون فلامُوفتس-مولندورف Ulrich von Wilamowitz-Moellendorff أسماها فلولوجيا المستقبل! Zukunftsphilologie! 1872 والتي ردّ بها على كتاب الفيلسوف وفقيه اللغة الشهير فريدريش نيتشه ميلاد التراجيديا من روح الموسيقى Die Geburt der Tragödie aus dem Geiste der Musik, 1872. دار السجال حول طبيعة المنهج الذي تدرس عليه النصوص اليونانية واللاتينية القديمة والهدف المرجوّ تحقيقه من درسها. فبينما كان يرى فلامُوفتس أن الكشف عن الماضي لا يتحصل إلا بدراسة متأنية للسياق التاريخي وأن الابتعاد عن الشأن اليومي شرط ضروري لتحقيق ذلك، كان نيتشه يذهب إلى أنّ الإغراق في التوثيق والتأريخ للنصوص القديمة لدرجة الاختصاص قد أعيا قراءة تلك النصوص بل أدى إلى إماتتها. في نهاية الأمر، يصبّ السجال الذي دار بينهما في قضية محورية تهم كل باحث في التراث الأدبي القديم: كيف ندرس نصوص الماضي ولماذا؟ ما حاجة الشأن الآني واليومي بدراسة الماضي؟ وما السبيل إلى ردم الفجوة بين البحث التاريخي التوثيقي والبحث الأدبي والفكري الإنساني؟ يقتبس المشروع عنوانه من هذا السجال وذلك لإعادة الاعتبار للأهمية العالَمية التي تحتلها الفلولوجيا اليوم ولما سيؤول إليها حالها في المستقبل. الهدف إذا هو المساهمة في تنشيط البحث في الممارسات النصية في العالم ومراجعة مناهج تَناوُل النصوص تحقيقا ودراسة من أجل تحقيق علم للنصوص القديمة يسعى إلى المحافظة على التراث الإنساني عامة، ويُقدم عنايةً بالكوني والمحلي في آن واحد.

إضافة إلى هذا، يسعى مشروع فِلولوجيا المُسْتَقْبَل إلى تشجيع الأبحاث التي تهدف إلى إعادة النظر في تراث الكتابة التاريخية والمهارات التوثيقية والأدبية في العصور الوسيطة والحديثة. كما يهتم المشروع بإلقاء الضوء على السجال الفكري والجدل الأدبي، ليس فقط من أجل فهم هذه السجالات بحد ذاتها وتقييمها حسب نوعها الأدبي ومكوناتها الداخلية، بل كذلك لكشف اللثام عن السياق الاجتماعي والفكري الأعم والشروط التاريخية التي أدت إلى هذه السجالات.

يَطمح فِلولوجيا المُسْتَقْبَل إذا إلى تحقيق ثلاثة أهداف: أولا، تقويم الممارسات النصية خارج أوروبا وداخلها، وثانيا: التجديد في مناهج قراءة النصوص القديمة ودراستها، وثالثا: إلى فتح آفاق رحبة للبحث من خلال نقد الطروحات الثقافوية والإقصائية (كالتمركز الأوروبي والاستعماري عموما على ذاته) وإدراج الأصول الأدبية والثقافية من خارج المجال

Islamic Historiography, 2007; Kane, Intellectuels non europhones, 2003; Al-Sayyid, al-Mustashriqun al-alman, 2007; Pollock, The Language of the Gods in the World of Men: Sanskrit, Culture, and Power in Premodern India, 2006, Future Philology: The Fate of a Soft Science in a Hard World", Critical Inquiry, summer 2009; Harpham, Geoffry, "Roots, Races and the Return to Philology", Representations, May 2009, 34-62.

الأوروبي في إطار كوني عام. إن أحد أهم الأمور التي سيرتكز عليه المشروع بالتالي هو البحث في صيرورة المعرفة المتأسسة على النصوص قديما وحديثا.

على سبيل المثال، أحدثت الحركات التجديدية السَّلَفية في العالم العربي، الداعية إلى الرجوع إلى الأصول الأدبية والدينية، كالتي حصلت في القرنين الرابع عشر والتاسع عشر الميلاديين مثلا، في زمن اتّسم بتسارع وتيرة الهجرات وتواتر الأزمات السياسية والاقتصادية، اهتماما متجددا بالأصول الأدبية وتنشيطا في مجال التأليف والتوثيق والإبداع العلمي. إن عددا ضخما من النصوص والموسوعات التي صارت العمدة في مجالات فكرية شتى قد صُنِّفتْ في زمن كثير المحن ما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر للميلاد. أَضِفْ إلى ذلك أن التجديد الذي حصل على أيدي علماء وفقهاء ولغويين من بلاد الشام في القرن التاسع عشر، في عصر شَهِدَ قَلَقا ثقافيا أحدثه الاستعمار والتبشير، قَلَقًا نظر إليه من عاينه كصدع في بنى المعرفة ومؤسساتها من جهة، وكفرصة للانتهاض والتجديد من جهة أخرى. وبالقدر نفسه في الصين، أدّى سقوط عهد منغ في 1644 إلى تجديد الاهتمام بدرس التراث الصيني القديم، إذْ أراد العلماء الصينيون حينها إحياءَ المنهج الكلاسيكي القديم في دراسة النصوص، فبدأوا يقرأون النصوص القديمة بمناهج جديدة، مطبقين طرائق في البحث مُبْتَكَرة كدراسة الخطوط، والمنقوشات والصوتيات وعلم المعاجم.4

يحسن بنا هنا أن نتأمل فعل الهجرات والأزمات وعمليات الطرد والمصائب الطبيعية في تشتت المعرفة وانتقالها عبر المجالات الجغرافية والثقافية. ما الأثر الذي تحدثه هجرة العلماء وكتبهم، المطبوعة منها والمخطوطة، في الإبداع الفكري؟ وما أثر هذه الهجرات البشرية والعلمية في النهضة العلمية التي شهدها القرن العاشر في بغداد، وعصر النهضة الأوروبي، أو عصر المنغ بالصين؟ ما الأنساق والاتجاهات العلمية التي يتم استبدالها أو تعزيزها أو ترجمتها، سواء كانت نصا أو فهما أو مسلكا، من خلال هذه الهجرات؟ لا شك أنَّ أثر هجرات الشعوب والأفكار، الناجمة عن المصائب والأزمات، لهو مبحث جدير بالانتباه. فنجد مثلا عند ما تَدْلَهِم الأزمات وتتسارع وتيرة الهجرات يبدأ العلماء بمساءلة مشروعية مسلكهم المعرفي ونجاعته، قد تتجلى هذه المساءلة كدعوة إلى التجديد أحيانا وقد تأخذ شكل سجال فكري في أحيان أخرى، يصاحبها توليد مفردات ومفاهيم جديدة من أجل إعادة تنظيم المعرفة المتراكمة حسب نسق معرفي جديد.

أحد أشدّ مُعْضِلات الفلولوجيا اليوم هو أنها تخدم أحيانا مصالح رؤى إقصائية مُغْتَرّة ومستعلية لا محل لها في الجامعة الإنسانية العالمية. يبدو هذا بين الحين والآخر في بعض المؤرخين الذي يتوسلون بمناهج سقيمة للتأكيد على الخلافات الثقافية والقطرية. ولهذا كان من بين المواضيع المهمة في مشروعنا هو بحث ما صار يسمى بعصر "انحطاط" الشعوب غير الأوروبية وتأخرها كالصين والهند والعرب المتساوق مع "تفوّق" الغرب، والتي أنتجت مجموعة من الدراسات التاريخية والأدبية، تفتقد إلى أسس فلولوجية متينة، تتسم بالاحتقار لثقافات شعوب العالم وتراثها المكتوب. من هنا، فإن المنهج الفلولوجي، إذا ما فهمناه كمنهج يُثَمِّن القراءات المتعددة للنصوص والتَّدبُّر المُتَأنِّي لها والكشف عما هو إنساني

4 Elman, Benjamin, "The Unravelling of Neo-Confucianism: From Philosophy to Philology in Late Imperial China", in Tsing Hua Journal of Chinese Studies, December 1983, 73, cited in Pollock 2009, 944.

وعام فيها، هو خير سبيل إلى تحرير ثقافات شعوب العالم من سِجن ثقافة الأفق الواحد وهيمنتها.

العودة إلى الفلولوجيا

يؤمن المشروع بأنّ الاهتمام بالنصوص القديمة ودراستها والانفتاح على التراث الفلولوجي العالَمي هي من أهم السُبُل إلى بعث الحياة في الإنسانيات اليوم. فكمال الذات لا يأتى إلا بعد نقد الذات لنفسها، فهي لا تكتمل حقا إلا بتلك المعرفة التي تأتي من دراسة شعوب العالَم وتراثها وأفكارها.5 ولهذا كان مصير العلوم الإنسانية ونجاحها مرهونا بشروط ثلاثة: الوعي بالذات، والكونية المفاهيمية، والتعددية المنهجية. فإذا كانت الفلولوجيا تريد أن تحيا في عالمنا المتعولم المتسارع والمتغير دوما فسيكون عليها أن تعيد الاعتبار إلى ما قدّمه العلماء والكُتاب، من كل زمان ومكان، من مناهج ومسالك معرفية، ذلك لأننا لا ندرك أهمية قراءة النصوص حقا والسبيلَ إلى الرفع من شأنها بين العلوم إلا إذا تَعَدَّدَت مناهجنا وتَنَوَّعت، ولا يكون هذا التَعَدُّد إلا بالانفتاح على مناهج مغايرة ومتنوعة لقراءة النصوص في العالَم.6

مجالات المشروع

لعلّ أهم مكون من مكونات المشروع هو البحث في تاريخ حقل الفلولوجيا نفسه. فلا يكون التجديد المنهجي المنشود في دراسة النصوص القديمة دون وعي بتاريخ المفاهيم الفكرية والممارسات النصية التي تأسست عليها النصوص القديمة. ولذلك يقترح القائمون على المشروع التركيزَ على محاور البحث التالية:

- أصول الفلولوجيا وتحوّلات الممارسات النصية.

ما هو أصل الفلولوجيا؟ بأي شكل فكري تتجلى الفلولوجيا وما مَنَاطُها؟ وكيف تتحوّل عبر الحقول والمجالات المعرفية؟ وما هي الشروط السياسية والثقافية التي تؤدي إلى تلك التحوّلات؟ يقع الاهتمام هنا في تتبع التطوّر التاريخي للفلولوجيا في سياقات ثقافية وبيئية مختلفة. ولعلّ من الأمثلة الواضحة التي تبين مسار شكل من أشكال الفلولوجيا وتطوراتها هو الأثر الهلنستي في التراث الفلولوجي العربي واللاتيني، والذي ازدهر في مراكز علمية مهمة، فارسية وعربية وإفريقية، كالبصرة، وبغداد، وبخارى ومرو وتمبكتو، على سبيل المثال. وأيضا، نذكر ذلك الشكل من فقه الأدب الفارسي الذي تطوّر بفعل تَعالُق الفلولوجيا الهلنستية - العربية مع الفلولوجيا السنسكريتية.

- منزلة الفلولوجيا بين العلوم (كعلاقتها بالعلوم الطبيعية والدينية والقانون مثلا).

ما علاقة الفلولوجيا بغيرها من أشكال المعرفة؟ وكيف يتم توظيف المعرفة الفلولوجية في مجالات علمية أخرى؟ يهتم

5 Said 2003.

6 Pollock, 2009, 949.

مشروع فِلولوجيا المُسْتَقْبَل برصد المسارات الفكرية التي سلكتها الفلولوجيا كي تصبح علما مستقلا بذاتها، مغايرة في مجمل تصوراتها ومناهجها عن العلوم الدينية والطبيعية والفقهية وإن تقاطعت معها في عدد من الأهداف والممارسات البحثية. إن التفاعل ما بين العلوم الفلولوجية وغيرها من العلوم، في آسيا وإفريقيا وأروربا، يمثل مجالا حيويا للبحث، يكشف عن الأسباب الثقافية والمؤسساتية التي جعلت النص وعاء للمعرفة وسبيلا إليها في آن واحد.

- علاقة الفلولوجيا بالجامعة.

كيف تظهر مؤسساتيا وتَعْمَل؟ أين يُمارس علم الفلولوجيا خارج أوروبا، ومن يمارسها؟ وتحت أي مسمى؟ يهتم مشروع فِلولوجيا المُسْتَقْبَل بالإطار المكاني والمؤسساتي كالمدارس والجامعات والمكتبات الذي نشأت فيه الفلولوجيا، قديما وحديثا. فمثلا، تعتبر كتابات فلهم فون هومبلدت Wilhelm von Humboldt 1762-1835 وفريدش شلايرماخر 1768-1834 Friedrich Schleiermacher عن الجامعة الألمانية الحديثة مصدرا ثريا لدراسة صلة علم الفلولوجيا بالجامعة واستقلالها علما وفق تصورات علماء القرن الثامن عشر والتاسع عشر الألمان، وهي تكشف كذلك عن الخلفية السياسية والفكرية التي صاحبت تلك التطورات. وفي المجال العربي مثلا، ما زالت مسارات مؤسسات علمية عريقة كالأزهر والزيتونة والقرويين بحاجة إلى تأريخ ودراسة متأنية، تجمع ما بين معطيات الدرس التاريخي والإرشيفي والبحث في سير العلماء الذين عملوا في هذه المؤسسات. كيف عملت هذا المؤسسات في الأزمنة ما قبل الحديثة وما صلتها بمؤسسات الدولة الأخرى؟ وما الذي حصل بها في الأزمنة الحديثة؟ ما هي الأبعاد التاريخية والفكرية لظهور الجامعات العصرية منذ مطلع القرن العشرين، كجامعة القاهرة مثلا؟ ثم ما علاقة عمارة البناء وهندسة الفضاء والمكتبات وقاعات الدرس والمناظرة بطبيعة الفلولوجيا وعلاقة الاستاذ بالطالب واستقلالية الباحث؟

- علاقة الفلولوجيا بالدرسات الدينية.

ما صلة العلوم الدينية بالفلولوجيا؟ كيف أدّى تطور الفكر الديني إلى تغيرات في الممارسة الفلولوجية؟ إن أثر الإصلاح المسيحي والحركة البروتستانتية في ازدهار الفلولوجيا الأوروبية وأخذها الشكل الذي أخذته، وبالذات كما تجلى في التقليد الفلولوجي الألماني، كما مثله فلهام ديلتاي Wilhelm Dilthey 1833-1911 وإمنويل هرش Emanuel Hirsch 1888-1972، لهو مثال واضح على صِلَة الفكر الديني بالممارسة النصية. من الأسئلة التي يطرحها مستقبل الفلولوجيا إذاً: كيف ظهرت أشكال معينة من الفلولوجيا والدرس النصي كنتيجة لمستجدات الفكر الديني؟ إن هذا الأثر ما زال بحاجة إلى تتبع مصادره وأشكال تظاهراته في البيئات الفكرية المختلفة والسياقات الدينية المتنوعة، كبيئة علماء الهند المسلمين مثلا الذين اشتهر من بينهم شاه ولي الله الدهلوي Shah Walliullah 1703-1762، وسيد أحمد خان Sayyid Ahmad Khan 1817-1898، وشبلي نعماني Shibli Numani 1857-1914، ومولانا أبو الكلام آزاد Maulana Abul al-Kalam Azad1888-1958، وحميد الدين فراهي Hamiddudin Farahi 1863-1930، أمين أحسن إصلاحي Amin Ahsan Islahi 1904-1997، والتي ظهرت على أيديهم مناهج جديدة في دراسة النصوص الدينية وتفسيرها، وذلك بفعل الفكر السَّلَفي التنويري وشيوع مراكز التعليم الاستشراقية التي شاعت في شبة القارة الهندية وكردّة فعل على الحركات الاستعمارية والتبشيرية

- الفلولوجيا والإمبريالية والقومية.

يكمن الاهتمام هنا بصلة الفلولوجيا باعتبارها شكلا من أشكال المعرفة بأنظمة الحكم والسلطان. يدخل في هذا اعتبار الفلولوجيا علما استعماريا فليس لها من غرض إلا الحط من ثقافات الشعوب، ودور الفلولوجيا في تأطير الأصول الأدبية القومية national canons والمحافظة عليها. يدخل في ذلك أيضا رفض بعض أشكال الفلولوجيا باعتبارها شكلا من أشكال الهيمنة الاستعمارية ودعم أشكال أخرى من الفلولوجيا باعتبارها سبيلا إلى تحرير الشعوب من سيطرة سلطان المستعمر.

- الفلولوجيا، والترجمة، وصيرورة المعرفة.

ما أثر هجرة العلماء وانتقال كتبهم ونصوصهم في الإبداع المعرفي؟ وما هي سبل هجرة العلماء والكتب والأفكار قديما وحديثا؟ ما فِعْل ترجمة النصوص من مجال لساني ما إلى مجال آخر في تأطير مدونة نصية ما وتغيير الممارسة النصية لتناسب ذلك التأطير الجديد؟ ما أثر السجال الفكري وكتب الرد والدحض والمناظرة في انتقال المعرفة، وإن كانت هذه المعرفة من الخَصْم المرفوض؟ وكيف يتم إقصاء بعض الأنساق المعرفية والممارسات النصية وتهميشها بسبب هذه التغيرات؟ وما السبيل إلى كتابة تاريخ لصيرورة الفلولوجيا يراعي نجاحاتها ومواطن تفوقها أحيانا، كما يراعي إخفاقاتها والأثر الهادم الذي تركتها أحيانا أخرى؟

آليات تنفيذ المشروع

يشرف على المشروع عدد من الباحثين والباحثات من جامعة برلين الحرة بألمانيا من تخصصات مختلفة، وينفذ المشروع حسب الطرق التالية:

- دعوة خمسة باحثين شباب واعدين لمدة سنة أكاديمية واحدة للمساهمة في نشاطات المشروع من خلال أبحاثهم في مجالات تخصصاتهم. يتم الإعلان عن هذه المنح سنويا، عادة في فصل الخريف، ويشترط في المتقدم أن يكون حاصلا على شهادة الدكتوراة أو ما يعادلها، شرط أن يكون قد حصل عليها خلال مدة لا تتجاوز ست سنين حين التقديم، وأن يكون بحثه منسجما مع مقاصد المشروع وملتزما بقواعد البحث التاريخي والفلولوجي. يتوقع من المتقدمين المقبولين المشاركة بنشاطات المشروع بشكل دوري والتحاور مع الباحثين الآخرين من أجل تحقيق التواصل الثقافي المنشود.
- دعوة باحثين من أنحاء العالم للمساهمة في سلسلة المحاضرات والورشات العلمية التي ينظمها المشروع.
- تنظيم عدد من المنتديات الدولية، تُعْقَد أولاها في حرم الجامعة الأمركية بالقاهرة ديسمبر 2010، بعنوان "الممارسات النصية خارج أوروبا 1500-1900" [Textual Practices Beyond Europe 1500-1900].

نستقبل استفساراتكم عبر البريد الإلكتروني: zukunftsphilologie@trafo-berlin.de

يتعاون مشروع فلولوجيا المستقبل مع معهد فريدرش شليغل للأدب المقارن بالجامعة الحرة Friedrich Schlegel Graduiertenschule ويدعمه منتدى الدراسات العَبْر-إقليمية (Transregional Studies).

إن منتدى الدراسات العَبْر-إقليمية (Transregional Studies) مشروع جديد تتبناه ولاية برلين يهدف إلى دعم الأبحاث العلمية التي تربط دراسة مجال جغرافي وثقافي معين برؤية للعالَم أكثر تعقيدا وتشابكا وترابطا، تتجاوز الأطر القومية والثقافية والإقليمية. يشارك المنتدى مجموعةً من المعاهد والمؤسسات البحثية التي تعتنى بدراسة مقارنة للمجالات الثقافة والفكرية المتعددة، ويقوم على إدارته هيئة من مدراء ومسؤولي معاهد بحثية ومراكز جامعية ببرلين. بدأ المنتدى عمله في 2010 بدعم ثلاثة مشاريع في حقول القانون والفلولوجيا وعلم اجتماع المدن. يتلقى المنتدى تمويله مِن برلمان ولاية برلين.

لمزيد من التفصيل، ندعوكم إلى زيارة هذا الموقع: www.forum-transregionale-studien.de